

بناء الزمن و المكان في الرواية العربية

دحو مامة

كلية الآداب واللغات والفنون

استطاعت الرواية العربية منذ نشأتها أن تخلق لها مكانا في عالم الأدب المعاصر، وتبرز بسماتها الأصيلة وتدخل معترك الحياة المعاصرة لتعالج قضايا الواقع ومشكلات الإنسان بمنظار صحيح، بفضل بنائها الفني المتكامل الذي يتفق وروح الحياة ذاتها.

تعتبر الرواية جنسا أدبيا قائما بذاته، له أسسه النقدية وأنماطه النوعية وقد تعددت الآراء النقدية حول مفهومها، نجد ميخائيل باختين يعرفها بأنها "ظاهرة متعددة في أساليبها، متنوعة في أنماطها الكلامية، متباينة في أصولها، يقع الباحث فيها على عدة وحدات أسلوبية غير متجانسة، توجد أحيانا في مستويات لغوية مختلفة وتخضع لقوانين أسلوبية مختلفة" 1

كما يحدد محمود أمين الرواية من المنظور الإيديولوجي والواقعي فيرى «أن الخطاب الروائي بشكل عام هو بنية لغوية دالة، أو تشكيل لغوي سردي دال، يصوغ عالما موحدًا خاصا، تتنوع وتتعدد وتختلف في داخله اللغات والأساليب والأحداث والأشخاص والعلاقات والأزمنة والأمكنة دون أن يقضي على التنوع والتعدد والاختلاف على خصوصية هذا العالم ووحدته الدال، بل هو يؤسسها» 2.

يمكن القول أن الاختلاف في تحديد مفهوم الرواية نابع أصلا من اختلاف وجهات نظر هؤلاء الكتاب غير أنهم يتفقون في تحديد العناصر المشكلة لبنية الرواية نجد طه وادي في كتابه (دراسات في نقد الرواية) يتعرض

هو الآخر لمفهوم الرواية كونها « تجربة أدبية يعبر عنها بأسلوب النشر سردا وحوارا ، من خلال تصوير مجموعة من الأفراد أو شخصيات يتحركون في إطار نسق اجتماعي محدد الزمان والمكان ، ولها امتداد كمي معين يحدد كونها رواية»³.

أما بالنسبة لنشأة الرواية فثمة اختلاف كبير بين الكتاب العرب في مسألة أصولها العربية لأن منهم من يؤكد بأن الرواية العربية هي الابن الشرعي للرواية الأوروبية والثقافة الغربية عموما، هذا ما أكدته "كوثر عبد السلام البحيري" في كتابها (أثر الأدب الفرنسي على القصة العربية) ، جازمة بأنه : «سوف يكون للتأثير الفرنسي على الأدب العربي في مصر فضل إبداع لون أدبي جديد هو القصة بصورتها الحديثة»⁴.

و يمكن القول بأن الرواية العربية في نشأتها نابعة من مصدرين أساسيين هما : المقالة الإصلاحية والحكاية الشعبية والخرافية، إلا أن الثقافة الكتابية والشفوية العربية في نهاية الأمر هي التي أنتجت النصوص العربية الأولى.

إضافة إلى العاملين (الصحافة ، الحكايات الشعبية) عملت الترجمة على إثراء المادة السردية على صفحات الصحف والمجلات وعملت بدورها على تربية الذوق الأدبي .

وقد ظهرت الرواية العربية الجزائرية متأخرة بالقياس إلى الأكال الأدبية الحديثة مثل : المقال الأدبي والقصة القصيرة والمسرحية ولاشك أن الناس تعودوا قراءة الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية وترجمة معظم الروايات بهذه اللغة إلى العربية ، وبأن الناس يرددون أسماء كتابها ويعرفون معظم كتاباتهم عكس ما يعرفونه عن كتاب النثر الجزائري الحديث .

ومنه فإن الرواية الجزائرية هي من مواليد السبعينات بالرغم من أن هناك بذورا ظهرت لها بعد الحرب العالمية الثانية وتأخر ظهور الرواية الجزائرية يرجع إلى أن هذا الفن صعب يحتاج إلى تأمل طويل وإلى صبر وأناة ثم يتطلب ظروفًا ملائمة تساعد على تطوره وعناية الأدباء به .

ومهما يكن من شيء ، فقد نشأت الرواية الجزائرية الفنية تتكئ على الواقع المعيشي سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ، ثم مع تردد في الموقف الإيديولوجي وبعض الضعف الفني بناء وشخصيات وتصورا ، كما نرى ذلك في (ريح الجنوب) ، ثم خطت الرواية خطوة فنية نحو التطور الإيجابي -فنيا- في هذه النشأة برواية (اللاز) وذلك من حيث الصياغة وصفا وتصويرا ، بالسرد ، والحوار المباشر ، وحديث النفس باستدراج ذكريات ومواقف ومشاعر وآمال وسواها 5.

ماهية الزمن الروائي :

جاء في القاموس المحيط «الزمن لقليل الوقت وكثيره ، والجمع أزمان وأزمنة وأزمن وأزمن بالمكان : أقام بلازمتنا والشيء طال عليه الزمن . يقال : مرض مزمّن وعلة مزمنة والزمان : الوقت قليله وكثيره ويقال السنة أربعة أزمنة : أقسام وفصول» 6.

ولفظ الزمان مشتق معناه من "الأزمنة" بمعنى الإقامة ، «ومنه اشتقت الزمانة لأنها حادثة عنه ، يقال : رجل زمنٌ وقوم زمّني» 7.

وتعني الإقامة : المكث والبقاء والبطء جميعا ، فكأن الزمن في اللطف دلالة يحيل على معنى التراخي والتباطؤ ، أي كأن حركة الحياة تتباطأ دورتها

لتصدق عليها دلالة الزمن ، التي تحول العدم إلى وجود حينئذ أو زمني
يسجل لفظة من الحياة في حركتها الدائمة ، وديمومتها السرمدية .

يكسب الزمن معاني مختلفة ، بل متشابهة ومتبائية كذلك ، ولو أراد دارس أن
يقف على الزمن بمعانيه المختلفة ، لصعب عليه الأمر حتى لو نذر حياته للوقوف على
هذه المسألة ، "فالزمن يأخذ أبعاداً شتى في الفلسفات المختلفة ، كما أن للزمن معان
اجتماعية ، نفسية ، علمية ، دينية ، وغيرها"8.

يرى "ابن رشد" أن الزمن والحركة متلازمان ، يؤكد على استحالة
الفصل بينهما فيقول : «إن تلازم الحركة والزمان صحيح . وإن الزمان شيء
يفعله الذهن في الحركة ، لأنه ليس يمتنع وجود الزمان إلا مع الموجودات
التي لا تقبل الحركة ، أما وجود الموجودات المتحركة أو تقدير وجودها ،
فيلحقه الزمان ضرورة»9.

لذلك فإن الزمن عنصر جوهري في المقارنة الروائية ، وهو ليس عنصراً
قائماً بالذات ، إنما هو مقترن بالرواية ، ودراسته تبرز طبيعة العلاقة القائمة
بينه وبين الحكاية المسرودة لما هو زمن يتميز بتعدد الأبعاد ، وبين الخطاب
الذي تميزه الخطية إلى جانب التغير أو النمو أو التحول ، وهذه العلاقة بين
الزمنين يمكن تجسيدها من خلال إبراز مدة الرواية ، وترتيب الأحداث فيها
ونظام تقطيعها وأخيراً ، عبر تحديد الزمن المهيمن في النص الروائي .

ويعتقد النقاد الروائيون المعاصرون بوجود ثلاثة أضرب من الزمن
تتألف بالحدث السردية وتلازمه ملازمة مطلقة .

أ- زمن الحكاية : وينضوي تحت الزمن الداخلي أو السيكولوجي .

ب- زمن الكتابة .

ج- زمن القراءة .

وهذان الأخيران ينضويان تحت الزمن الخارجي أو الموضوعي .

ماهية المكان الروائي :

المكان من الناحية اللغوية يعني الموضع الثابت ، المحسوس القابل للإدراك ، ويتنوع من حيث المساحة والحجم والشكل ، يقول "ابن منظور" : «والمكان- الموضع- والجمع- أمكنة- وأماكن جمع الجمع ، والعرب تقول : كن مكانك ، واقعد مقعدك ، فقد دل هذا على أنه مصدر من كان أو موضع منه ، وإنما جمع أمكنة ، فعاملوا الميم الزائدة معاملة الأصلية»¹⁰.

والأماكن تختلف حجما وشكلا ومساحة ، فيها الضيق المغلق ، والمتسع المفتوح ، المرتفع والمنخفض ، المتقطع والمتصل ، "إنها أشكال من الواقع انتقلت إلى الرواية وصارت عنصرا من عناصرها"¹¹.

وينقسم المكان عند البنيويين إلى قسمين هما : 12

أ- المكان الطبيعي : إن المكان الطبيعي يقصد به المكان الحقيقي في الواقع وهو مكان خارج النص الروائي ، وقد نجد له تسميات أخرى : كالمكان الموضوعي ، والواقعي ، والخارجي ، وكلها تشير إلى المعنى نفسه . ومع ذلك نجد بعض الروائيين وخاصة الواقعيين لجئوا إلى تسمية الأمكنة في بعض أعمالهم بأسماء حقيقية تدل في الواقع الخارجي على أمكنة معروفة معتمدين في ذلك على أساليب الحذف والذوق والتغيير والإضافة .

ب- المكان الروائي : يدل المكان الروائي عند البنيويين على مفهوم محدد هو المكان اللفظي المتخيل ، وهو مكان تصنعه اللغة بناء على أغراض التخيل وحاجاته في الرواية هذا المفهوم الذي حدده البنيويون للمكان في الرواية هو الأبرز في أدبية المكان لأنهم عملوا على ربط المكان في الرواية بإمكانات اللغة في التعبير على المشاعر والتصورات المكائنية ، وهذه الإمكانيات موزعة لأغراض الرواية ، وعلى هذا عد في منظورهم النقدي مكونا من مكونات الرواية ، له بنيتة المؤثرة في العناصر الأخرى داخل الرواية والمتأثرة بها ، وجعلوه تشكيلا يجمع مظاهر المحسوسات من أصوات وروائع وألوان ، وعنصرا ديناميا في تماسك الشخصيات الرواية وأحداثها .

وقد ميز البنيويون بين المكان الطبيعي والمكان الروائي لأن لا يكون لبس بينهما أثناء التحليل قد هبوا في آرائهم إلى أن المكان في الرواية كالمكان الطبيعي ، " موضع ثابت محسوس قابل للإدراك حارٍ للشيء المستقر ، كما أنه متنوع مثل المكان الطبيعي ولكن ذلك لا يعني أنهما متطابقان ، بل يعني أن هناك تشابها شكليا مرده أن القاص اصطنع أمكنة تشكل الفراغ في العالم الحقيقي الخارجي ، كالمقاهي والشوارع والجبال وغير ذلك "13.

2- توظيف المكان في الإبداع الروائي :

عندما يعمل الروائي على تشكيل المكان الذي ستجري فيه الأحداث يحرص على أن يكون بناؤه منسجما مع طبائع شخصياته على أن يكون هناك تأثير متبادل بين الشخصية والمكان الذي تعيش أو البيئة التي تحيد بها ، في هذه الحالة يصبح المكان قادرا على كشف الحالة الشعورية للشخصية ، وبناء على هذا الأساس ، سيساعد المكان على فهم الشخصية ، " وهو بناء

أو تقنية يتم إنشاؤها اعتمادا على المميزات التي تطبع الشخصيات ، والمكان لا يظهر إلا من خلال وجهة نظر شخصية تعيش فيه ، والمنظور الذي تتخذه هو الذي يحدد دلالاته ويحقق له تماسكه الإيديولوجي".¹⁴

وتغيير المكان في الرواية يؤدي بالضرورة إلى تحول في الحبكة وترتيب السرد ، ثم إن جميع عناصر الرواية من شأنها أن تخبر عن الكيفية التي نظم بها المكان ووظف .

إن المكان الذي تقوم الرواية على تصويره له تفرد الخاص ، وله طبيعته الخاصة وواقعيته : «فهو مكان يحدد جماليا ويؤسر في قبضة مجموعة من الكلمات ، لأنه مكان مصاغ من ألفاظ لا من موجودات»¹⁵.

ومن هذا يتضح أن المكان ركيزة من ركائز البناء الروائي ، لأنه يساعد على التفكير والتركيز والإدراك العقلي للأشياء والبنية التي تنتظم مع الأحداث والشخصيات في وحدة فنية متكاملة. وتوظيف المكان في الإبداع الروائي من الوسائل الجمالية ذات التصورات البعيدة لما يحمله من ملامح ذاتية، وسمات إبداعية ، وعواطف إنسانية ، وتجارب اجتماعية تجعل العمل متكاملا في بنيته ورؤاه.

هكذا يصبح المكان مكونا روائيا جوهريا وعنصرا متحكما في الوظيفة الحكائية والرمزية لأن له أشكال وتصورات مختلفة ويحتوي دلالات عديدة وفي معظم الأوقات يكون الهدف من الرواية بأكملها.

قائمة المراجع :

- 1- ميخائيل باختين : الكلمة في الرواية ، قنلا عن المطبوعات الجامعية ، مادة النص الثري للأستاذ : بن قرين عبد الله ، معهد اللغة العربية وآدابها ، جامعة تيزي وزو ، محاضرة بعنوان الأسلوبية للمعاصرة والرواية ، ص 09.
- 2- محمود أمين العام : الرواية العربية بين الواقع والإيديولوجية ، دار الحوار للنشر والتوزيع ، دمشق ، ط1 ، 1986 ، ص 11.
- 3- طه وادي : الرواية السياسية ، دار النشر للجامعات العربية ، ط1 ، 1966 ، ص 56.
- 4- كوثر عبد السلام البحيري : أثر الأدب الفرنسي على القصة العربية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1985 ، ص 280.
- 5- عمر بن قينة : في الأدب الجزائري الحديث في الأدب الجزائري الحديث ، ديوان للطبوعات الجامعية ، 1995 ، ص 240 - 241.
- 6- الفيروز أبادي محمد الدين محمد بن يعقوب : قاموس المحيط ، مر ، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، ط2 ، 1952 ، ج ، ص 233 - 244.
- 7- ابن رشد : تهافت التهافت ، تقديم وضبط وتعليق ، محمد العربي ، بيروت ، دار الفكر اللبناني.
- 8- عبد المالك مرتاض : في نظرية الرواية ، بحث في تقنيات السرد ، الكويت ، دار المعرفة ، 1997 ، ص 200.
- 9- سينا قاسم : بناء الرواية دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ ، مصر ، مكتبة الأسرة ، ص 66.
- 10- ميخائيل باختين : الخطاب الروائي ، دار الفكر للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط1 ، 1987 ، ص 07.
- 11- كوثر عبد السلام البحيري : أثر الأدب الفرنسي على القصة العربية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1985 ، ص 280.
- 12- ينظر : أماندلاو : الزمن والرواية ، ت : بكر عباس ، بيروت دار صادر ، سنة 1997 ، ص 182 - 183.
- 13- أحمد حمد النعيمي : إيقاع الزمن في الرواية العربية للمعاصرة ، دار فارس للنشر والتوزيع ، ط4 2004 ، ص 16.
- 14- أحمد عواد : أضواء على مشكلة الزمان في الفلسفة الإسلامية ، عمان وزارة الثقافة ، 1992 ، ص 39.
- 15- عبد المالك مرتاض : بحث في تقنيات السرد ، الكويت ، دار المعرفة ، 1997 ، ص 199.